Archive of SID

The Quarterly Journal of Lesān-E Mobeen
(*Research in Arabic Literature***)**
Vol. 10, New Series, No.35, Spring 2019

Changing in Character and Place in the Novel of "A Space for Madness" by Saad Muhammad Rahim*

Karim Amiri
Ph.D Student of Arabic Language and Literature, Persian Gulf University, Bushehr,Iran.
Muhammad Javad Pourabed
Assistant Professor in Arabic Language and Literature, Persian Gulf University, Bushehr,Iran.
Naser Zare,
Assistant Professor in Arabic Language and Literature, Persian Gulf University, Bushehr,Iran.
Sayed Haidar Far'a Shirazi,
Associate Professor in Arabic Language and Literature, Persian Gulf University Bushehr,Iran.

Abstract
The Iraqi novelist, Saad Muhammad Rahim, presented his novel "Foshat'on Leljonoun" the form of a tragicomedic text to address the transformation process of the main character and the place of the story. Thus, in this work, he highlighted the two elements of character and place, and set a unison relationship between them, so that his novel would be able to portray a part of human suffering and the place resulting from the rule of government during the war. The present study used a descriptive-analytic approach to focus on the main character of this novel to uncover the artistic delicacies used to link it to some kind of place, using the theory of Y. Lotman. Since the hero in terms of psychological dimension changes from a healthy person into a mad man, it is called a transformation. The place was also called a variable because the current conditions have affected it and have changed its appearance. The study showed that Amer, the main and full-dimensional character of the novel became mad or pretended to be mad after being tormented. Therefore, he eluded to an unfamiliar region, changed his name to Hekmat or Hakku, so that he could indirectly express his protest against the disorders of the status quo, especially the abominable behavior of the government. Consequently, he attended variable places, especially the open-closed ones, and made a relationship with them in an evolving way. The places also changed themselves with the change of character's portrait.

Keywords: Novel, character, place, transformation, Foshat'on leljonoun, Sa'ad Muhammad Rahim

* Received on: 13/04/2019 Accepted on:05/07/2019
-Email (Corresponding Author): *m.pourabed@pgu.ac.ir*
-DOI: 10.30479/lm.2019.10412.2777
-© Imam Khomeini International University. All rights reserved.

www.SID.ir

فصليّة لسان مبين (پژوهش ادب عربي)
السنة العاشرة، المسلسل الجديد، العدد الخامس والثلاثون، ربيع ١٣٩٨، ص ٦٠-٤٥
Archive of SID

التحوّل في الشخصيّة والتغيير في المكان في رواية "فسحة للجنون" لسعد محمد رحيم*

كريم أميري، طالب الدكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة خليج فارس (بوشهر)
محمدجواد پورعابد، أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة خليج فارس (بوشهر)
ناصر زارع، أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة خليج فارس (بوشهر)
سيد حيدر فرع شيرازى، أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة خليج فارس(بوشهر)

الملخّص

عمل الروائي العراقي، سعد محمد رحيم، في هذا النصّ على ما يسمّى بالتراجيكوميديا ليسرد حياة شخصيّة مثقّفة قادتها ملابسات ما عاشته من آلام نتيجة تعرّضها لشتّى أنواع التعذيب والعنف من قبل جهاز الأمن السابق، لتتحوّل أو تدّعي فيما بعد الجنون لتحظى بفسحة للعيش؛ فكان هناك جانبان في حياتها يعملان على إضاءة النصّ السردي؛ جانب جدّي وآخر هزلي ساخر.

تركّز الدراسة في مسارها على الشخصيّة المحورية مستقصية حضورها في أنواع الأمكنة حسب التقاطبات المكانية ليوري لوتمان (Yuri Lotman)، وتبحث في التأثير المتبادل بينها، وبين أماكن تواجدها. ومن هنا ينطلق البحث مفيداً من المنهج الوصفي التحليلي في إثارة إشكالية الشخصيّة وعلاقتها بالمكان الروائي.

وتبيّن أنّ الشخصيّة التراجيدية (عامر)، حضرت في الأماكن المغلقة والمفتوحة، وهي أماكن متغيّرة بفعل السلطة الحاكمة، والتغيير الطارئ على البلاد (الحرب)، مصرّة على العيش مشرّدة، غير آبهة في نفس الوقت لنهاية مأساوية، كانت لها بالمرصاد؛ فكما عاشت ضحية تعسّف ديكتاتوري صارت ضحية قصف عشوائي لينهي حياتها فترحل عن فضاء مكاني ملؤه الجور والامتهان لكرامة الإنسان.

كلمات مفتاحيّة: الرواية العراقية، سعد محمد رحيم، فسحة للجنون، الشخصيّة، المكان المتغيّر.

---

* - تأريخ الوصول: ١٣٩٨/٠١/٢٤ تأريخ القبول:١٣٩٨/٠٤/١٨
-عنوان البريد الإلكتروني(للكاتب المسؤول): m.pourabed@pgu.ac.ir
- شناسه ديجيتال(DOI):10.30479/lm.2019.10412.2777

www.SID.ir

Archive of SID

١. المقدّمة

عمل القاصّ والروائي العراقي سعد محمد رحيم في هذا النصّ على ما يسمّى بالتراجيكوميديا، فأصبحت هذه الرواية لا تشبه رواياته السابقة، فشخصيتها المحورية (عامر)، مختلفة بخلفيتها الاجتماعية ومسار حياتها ومصيرها، والدراما التي تصنعها باختيارها طوراً، ومرغمة طوراً آخر، مثيرة وتراجيدية، لكنّها تختلف عن الدراما التي عاشها (كمال) في *غسق الكراكي*، و(سامر) في *ترنيمة امرأة. . شفق البحر*، و(محمود المرزوق) في *مقتل بائع الكتب*، و(الدكتور علاء البابلي) في *ظلال جسد. . ضفاف الرغبة*؛ غير أنّ بصمة الكاتب تبقى هي ذاتها في رواياته كلّها.

الرواية بمجملها عبارة عن سرد لحياة الشخصيّة المحورية (عامر) التي تعرّضت لشتّى أنواع العنف، والتعذيب من قبل جهاز الأمن السابق في العراق واتّهمت بالانتماء للفكر الماركسي، والشيوعية وأنّها تعدّ انقلاباً أو تخطّط له فقادتها تلك الملابسات لتتحوّل أو تدّعي فيما بعد الجنون لتحظى بفسحة للعيش.

تهدف الدراسة وبالتركيز على الشخصيّة الرئيسية، والتراجيدية، في أنواع الأمكنة التي تحضرها مستقصية التأثير والتأثّر المتبادل بين هذه الشخصيّة وأنواع المكان، وبخاصّة المكانين المفتوح والمغلق من التقاطبات التي قدّمها يوري لوتمان، ومن هنا ينطلق البحث من إثارة إشكالية المكان وعلاقته بالشخصيّة في الرواية.

تركّز الدراسة على العراق باعتباره المكان المتغيّر نظراً لتغيّر ملامح المكان بدءاً بإلقاء القبض على الشخصيّة المحورية، وتعرّضها لأنواع العنف، والتعذيب في السجن ومروراً بحقبة ذات مؤثّرات ثقيلة وقاتمة، هي الحرب، فضلاً عن إصابة الشخصيّة بالجنون القاتل والمؤلم، أو تقمّص شخصيّة المجنون وتداعياته الأخطر، ومن ثمّ إيداعها مستشفى المجانين في الشماعية، كلّ ذلك يعني تدفّق سيل من المحن، وانجراف لحياة الشخصيّة. وأمام تراكم المحن والعجز عن تجاوزها وعدم إمكانيّة تغيير مسارها، ثمّة من لا يجد بدّاً سوى تغيير المكان بشكل فرديّ تاركاً إيّاه للعامّة متحرّراً من أثره المباشر عليه بعد أن يظهر له في شتّى صوره، لهذا يصبح تركيز النصّ على هذه الصور من خلال صيرورة عزم البطل على الخروج من مكانه "الأصل" حسب تعبير فلاديمير بروب (Vladimir Propp)، وتغيير مكانه الأوّل/بغداد، ليذهب إلى مدينة حدودية غير واضحة المعالم ويرمز إليها بحرف (س)، مع تغيير في حاله النفسية والخلقيّة إلى الجنون، أو تمثيله، وتغيير في اسمها حتّى، ليصبح عامر حكمت أو حكّو بالتعبير المحلي. فكان هناك جانب جدّي في حياته وجانب آخر هزلي وساخر.

ويهدف البحث إلى الإجابة عن التساؤلات الآتية: أيّة أمكنة واكبت مسيرتة الشخصيّة الرئيسة وسيرتها؟ ما طبيعة العلاقة بين المكان والشخصيّة في الرواية؟ كيف كان دور الوعي المكاني للشخصية في إنتاج وتجسيد دلالات المكان؟ هل كان للسلطة الحاكمة صلة بتغيّر المكان؟ وما صور المكابدة لدى الشخصيّة الرئيسة والمكان؟ كيف تبلورت الشخصيّة المحوريّة وتحوّلت في الرواية؟

وكإجابة أوليّة نفترض أنّ الشخصيّة الرئيسة تحضر في الرواية ببعدها النفسي المضطرب إلى جانب بعديها الخارجي والاجتماعي، وأنّ الكاتب جعلها ممثّلة لجيل ضمن تراجيديا مؤلمة، ومتحوّلة ومتغيّرة بفعل السلطة وتغيّر المكان، وعبّر عن معاناتها مثلما أفصح عن مكابدة المكان أثناء حرب الخليج الأولى وبعدها.

www.SID.ir

Archive of SID

١-١. خلفيّة البحث

اهتمّت الدراسات النقديّة بثنائيّة الشخصيّة والمكان في الروايات العالميّة والعربيّة، وكثيراً ما تناولت كلّاً منهما بمعزل عن الآخر أو درستهما إلى جانب العناصر الأخرى، وقليلة هي البحوث الّتي جمعتهما تحت سقف واحد؛ ومن ذلك الرسائل الجامعيّة؛ مثل"بناء الشخصيّة والمكان في رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي"، رسالة الماستر للطالبتين فلّة قارة، ولينده لكحل، مقدّمة لجامعة منتوري- قسنطينة (٢٠١١م)؛ توصّلت الباحثتان إلى أنّ الشخصيّة تتكامل ولها أبعاد جسميّة ونفسيّة، وسلّطت الكاتبتان الضوء على المكان حيث تجاوز كونه مجرّد دكور للأحداث، فتحوّل إلى محاور حقيقيّة في الرواية. و"شعريّة الشخصيّة والمكان الروائي في (عائد إلى حيفا) لغسّان كنفاني (من البنية إلى الدلالة)"، مذكّرة الماجستير للطالب، محمد جودي، جامعة الجزائر٢، (٢٠١٢م)؛ ومن نتائجها أنّ غسّان يجمع بين الواقعيّ والتخييلي في بناء معالم الشخصيّة والمكان في الرواية. ومن المقالات: "أثر المكان في تحديد ملامح شخصيّة البطل في رواية (الطريق) لنجيب محفوظ و(الطريق) لعبد الحليم ابراهيم (دراسة موازنة)" لسُلافة صائب خضير (٢٠٠٦م)، لوحظ في النتائج أنّ الروائيَين تمكّنا من إبــداع طرائق جيّدة لتوضيح مكان البطل وأهمّيّـته في بناء الرواية، وكان نجيب محفوظ أكثر اقتداراً في عمله كلّه. و"طبيعة التلازم بين الشخصيّة الروائيّـة والحيّز المكانيّ، رواية التَبر لإبراهيم الكوني أنموذجاً"، لعكّازي شريف (٢٠١٣م) حيث ألفى الباحث فيه أنّ الكوني اعتمد على شخصيّات قليلة في روايته وعلى الرغم من قلّة الشخصيات في الرواية بالمقارنة مع الروايات العربيّة، فإنّ هذا الاقتصاد في الشخوص نابع من كون الحيِّز فقيراً. وتبقى ميزة هذه الدراسة في محاولتها الكشف عن العلاقة التناغميّة بين الشخصيّة والمكان والصلات بينهما في مكابدة تداعيات ظروف طارئة فرضتها السلطة على الإنسان والمكان، هذا من جهة ومن جهة أخرى فهي المحاولة الأولى من نوعها في دراسة الشخصيّة والمكان في هذه الرواية، وهي في الأصل رواية تُراجَع من منظور نقديّ يهتمّ ببنائها للمرّة الأولى وفقاً لما قدّر للباحثَين الاطّلاعُ عليه.

٢. علاقة الشخصيّة بالمكان في الرواية

تعتبر علاقة الإنسان بالمكان علاقة وجوديّة، إذ لا يمكن للإنسان أن يعيش إلّا في حيّز مكاني ينتمي إليه، ويحرّكه ويتحرّك فيه، وانطلاقاً من هذه الصّلة الّتي تبدأ منذ طفولة المرء وتتطوّر وتتعمّق مع الوقت، يبني الإنسان رؤيته إلى العالم والأشياء من حوله. يرى إدوين موير (Edwin Muir) أنّ «العالم الخياليّ لرواية الشخصيّة يقع في المكان» (١٩٦٥م: ٦٢). وعليه نرى الكاتب يمسك بأوّل خيط ليوصل المكان بالشخصيّة في عنوان الرواية نفسه*افسحة للجنون*؛ فالفسحة تدلّ على قسم من المكان أو متسع منه، أو فضاء خال. والجنون أدهى حالات الإنسان النفسية.

ويكون المكان في الرواية محورياً بالنسبة للشخصيّة خاصّة إذا تحقّقت فيه مطالبها ورغباتها، ووجدت فيه كلّ رغباتها وطموحاتها، لأنّ علاقة المكان بالشخصيّة هي علاقة تفاعل مستمرّ، فبمجرد أن يشير الكاتب للمكان تكون الإشارة للحدث، وهذا ما حصل في الرواية، قيد الدراسة؛ فيوم كان عامر مع رفاقه الطلبة، رافقته الوشاية، ويوم أصبح اسمه حكمت فكان أينما يمشي تصاحب مشيته الأحداث من قصف عشوائي وتساقط قذائف وما شابه ذلك، لأنّ الكاتب لا يقدّم المكان كإطار فحسب، بل كعنصر حكائي أساسي في المادّة الحكائية، له أهميته في تأطير البنية

www.SID.ir

Archive of SID

العامّة للنصّ الروائي، كما تنتظم فيه جملة من العلاقات التي تعكس تلك العادات والتقاليد التي تطبع تصرّفات الشخصيّة وسلوكها رغم انتقالها من مكان لآخر.

قضى عامر، معظم وقته وأكثر أيّامه في البلدة (س) مشرّداً ومرافقاً في نفس الوقت لمجانين من أمثاله وقد ألف بعض الناس وارتاد محلات عرق ومقهى وسيطرات للشرطة ودخل الأرض الحرام في ساحات معارك غير مكترث لما سيحدث له، كما ألف في المدينة بعض الحيوانات أيضاً وعطف عليها. وحضوره المكثّف هذا تسبّب في أن تكون البلدة الحدودية محتلّة لفضاء أوسع في المتن الروائي، وعليه غدا حجم الأحداث يكبر فهي الأكثر في النصّ، وأكبر حدث فيها هو موت حكمت في أحد أنهارها؛ «لم يكن ليكترث لأزيز قذيفة ثالثة ولصرخة انفلاقها المرعبة على مبعدة عشرين متراً أو أقلّ قليلاً لولا أن باغته عصفها وحمله مثل ريشة طائر السنونو لينكبّ على وجهه في النهر، في قلب تيّار الماء، عند المنحنى، فغاص ومن ثمّ برز رأسه يطلّ من أسفل» (رحيم، ۲۰۱۸م:۲۹٦).

وهكذا سجلّ الروائي لنا مسيرة تنقّل الشخصيّة بين الأمكنة معتبراً تنقّله هذا واضطهادَه في مسيرة حياته الشائكة ردّةَ فعل لانفراد السلطة بالحكم وعسكرتها للحياة، وكذا هامشيّة الشخصيّة، وتغيير مسار حياتها الخاصّة في الدرجة الأولى، فضلاً عمّا كان يحلم به في خياله الجامح؛ و«في الحياة حين تبحث عن مكان تأوي إليه أو تحتمي فيه تلجأ إلى الخيال الّذي يتعاطف مع الكائن الّذي يسكن المكان المحميّ فيجعله يعيش تجربة الاحتماء بكلّ تفاصيل الأمان والحماية الدقيقة» (باشلار، ١٩٨٤م: ١٣١). ويوضح أنّ هجرة عامر كانت في الأصل هجرة معكوسة، فمن المدينة الكبيرة/بغداد إلى الصغيرة/س أو قل: انتكاسة واضحة.

هنا بودّنا إضافة توضيح لا مندوحة عنه، وهو أنّ انتقال الشخصيّة من بغداد/الشماعية، واعتكافها في بلدة حدودية/مكان، رافقه تدمير للذات، لعدم إيمان الشخصيّة بجدوى الموضوع. فمن وجهة نظرها ترى خيط صلة بين السلطة وخراب الأمكنة، وأنّ الحرب، التي تدور رحاها، هي حرب ضدّ الإنسانية وخاصّة ضدّ الطبيعة البريئة والتي دمّرتها الحروب لسنوات طويلة. وهذه الحدود نفسها هي خطوط مرئية تعكس الأوامر والنواهي التي تعتدي بها السلطة على ذات الإنسان وحريّاته.

وعموماً وصف رحيم بطل روايته وانتقاله وهجرته هذه بعدّة صفات تساويه بالأنبياء وهجرتهم في مثل عباراته التالية: «وحده حكمت يقف محتجّاً مثل نبي أعزل. . » (رحيم، ۲۰۱۸م: ٥)، و«ابتعد حكمت، أو ولج عميقاً في ذاته. هو وضع أقرب ما يكون إلى الغيبوبة، وعلى مسافة ملتبسة من الموت» (رحيم، ۲۰۱۸م: ١٠)، وهكذا. . . كما تحيلنا القراءة النقديّة على أنواع المكان في النصّ الروائي وبناءً على التقاطبات المكانية التي عرضها الناقد الروسي، يوري لوتمان (Yuri Lotman)، (١٩٢٢-١٩٩٣م)، نذكر منها الأمكنة المغلقة والمفتوحة حسب الترتيب، وبالاعتماد على ما أتى به الفرنسي، غاستون باشلار (Gaston Bachelar)، (١٨٨٤-١٩٦٢م) نتطرّق إلى دلالات المكانَين المألوف والمعادي.

٣. تجليات الأماكن المغلقة في الرواية

المكان المغلق هو الذي تحدّه حدود من جوانبه الثلاث على أقلّ تقدير، بشرط أن تكون له حدود سقفيّة، وتتسم مساحته بالضيق، وعدم الاتّساع. إنّ فطرة الإنسان التي جبله الله عليها هدته إلى أن يأوي لمكان ذي سقف، ليعصمه من أخطار الفضاءات المفتوحة، فينشد به الأمان والراحة؛ لذلك لعبت الأماكن المغلقة دوراً بارزاً في حياة الإنسان منذ

www.SID.ir

Archive of SID

بدء الخليقة. ويكون المكان المغلق متنوّع الاستخدام، ويوظّف حسب احتياجات الشخص كالبيوت أو الغرف أو المكاتب والبنايات و. . إلخ.

ولقد تطرّقت الرواية لتلك الأماكن، فأصبحت ذات دلالة معبّرة ضمن حالة أرادها الكاتب. ويمكن أن نلاحظ محدودية وجودها في نطاق الرواية العراقية لأنّ الروائي العراقي كان يتّخذ من الأماكن المغلقة دلالات أوسع ممّا في الأماكن المفتوحة، ولعلّ السبب في ذلك، هو حالة الانفلاق النفسي التي كانت تعاني منها معظم الشخصيات، فكان الاقتراب من الأماكن المغلقة يضمن وجود دلالة معبّرة لتلك الحالة التي تعاني منها الشخصيّة.

٣-١. الأماكن المغلقة العامّة

المقصود بالمكان العامّ هو المكان الذي يكون مشتركاً بين الشخصيات في العمل الروائي، أو كما عبّر عنه حسن بحراوي بمكان الانتقال؛ إنّه «مسـرح لحركة الشخصيّات وتنقلاتها» (بحراوي، ١٩٩٠م: ٤٠). فالمكان المغلق العام يرتاده عامّة الناس؛ كالمكاتب، والمدارس والجامعات، والمستشفيات، والمساجد، والسجون، والمقاهي. . إلخ.

٣-١-١. السجن/الزنزانة

يعتبر من أشدّ الأماكن وطأةً على الإنسان، فهو أخطر عقوبة سالبة للحرية، إلّا أنّه «ضرورة اجتماعية وقانونية لا يمكن الاستغناء عنها فالجريمة ظاهرة اجتماعية لا يخلو منها مجتمع ولا يتوقّاها زمن منذ نشأة الأرض» (غانم، ٢٠٠٣م: ١٥٩). ويكاد لا يخلو مجتمع من المجتمعات سواءً منها المعاصر أو التأريخي من وجود السجون وإيداع الخارجين عن القانون فيها، فالسجن واقع إنساني، شئنا ذلك أم أبينا(غانم، ٢٠٠٣م: ١٥٦). ولكن «على السجن أن يكون جهازاً للانضباط لا يفوته شيء، وذلك بمعان عدّة: فهو يتولّى شؤون الفرد بجوانبه كلّها، من ترويضه الجسدي إلى قابليّته للعمل إلى مسلكه اليومي إلى موقفه الخلقي إلى استعداداته الأخرى» (بيضون، ١٩٨٥م: ٥٤). لكنّه على أية حال ذلك المكان الّذي يُفرض على الإنسان فيسلبه حريّته ويقيّد رغباته، ولقد «شكّل السجن بوصفه عالماً مفارقاً لعالم الحريّة مادّة خصبة للروائيّين في التّحليل وإصدار الانطباعات والّتي تساعد في فهم الوظيفة الدلاليّة الّتي ينهض بها السجن كفضاء روائي معدّ لإقامة الشخصيّات» (بحراوي، ١٩٩٠م: ٥٥). ويبقى السؤال مدوّياً في الرأس ما فعل عامر ليودع في السجن؟ أ هو خارج على القانون؟ أم خارج على قانون السلطة؟ «لا يعرف أين هو الآن. . في أيّ مكان من بغداد. . داروا به في الشوارع نصف ساعة ثمّ ألقوه هنا. . الزنزانة الضيّقة التي وضعوه فيها قبل ساعتين وأوصدوا بابها عليه والمضاءة بمصباح مئة واط، حارّة، خانقة. . » (رحيم، ٢٠١٨م: ٩٩). وفي المعتقل انهالت على عامر الضربات والصدمات الكهربائيّة، وعومل بوحشيّة، بما فيها التحرّش الجنسي، واتّهم عامر بالانتماء إلى الحزب الشيوعي؛ «في الليل، في هزيع ما متأخّر من الليل، سحبوه من الزنزانة وهو في الرمق الحرج. قدماه ضعيفتان، نصف أعمى ونصف ميّت، وعطشه حارق. . أجلسوه على كرسيّ خشبي في غرفة مبرّدة» (المصدر نفسه، ١٠١). وليس عجباً هذا فمن طبيعة السجن أن يكون مكاناً معادياً. وهذا يوحي بعمق المعاناة التي ألمّت بالشخصيّة لحظة تواجدها في ذلك المكان المغلق/المعادي؛ وتحمّلها للضرب يعني صبر البلاد/الأمكنة، والناس/الشخوص أيّام الظلم والاستبداد الذي مارسته بحقّهم السلطة.

ويشرح لنا الراوي العليم الأساليب الوحشية التي لا تخطر على خيال إنسان سوى التي تعرّض لها عامر في السجن، «واختصّ عامر على أثر لسعة ضربة سوط مباغتة على وجهه. . وتوالت الضربات سريعة وهو يحاول درأها

www.SID.ir

Archive of SID

بيديه المقيّدتين بجامعة تشدّ حلقتيهما على معصميه. وأمسك به اثنان وهو ينتفض ويصيح. وقيّدوه نائماً على بطنه إلى سرير حديدي لا فراش عليه. . كشفوا ظهره وألهبوه بكيبل نصف إنج. وهذه المرّة كان اثنان يضربان بإيقاع منتظم، ومن ثمّ نزعوا سرواله ولباسه الداخلي معاً وتوالت الضربات على مؤخّرته الضامرة» (المصدر نفسه، ۱۲۳). ويحاول أن يدافع عن نفسه، لكنّ الصاعقة الإرهابيّة وقعت على رأسه، في حفلات التعذيب الوحشي والمرعب، جرّد الجلاوزة منه سرواله الداخلي. وحاول اغتصابه أحد أفراد الأمن/ خلف بتشجيع من ضابط الأمن: «نكه يا خلف نكه» (المصدر نفسه، ۱۲٤). وهذه محاولة لإخافته والضغط عليه أكثر ووضعه في مأزق أخلاقي ونفسي حتّى ينالوا ما يريدونه منه.

وقد يصل العبء النفسي على الشخصيّة أقصاه من جرّاء وجودها في السجن فتقرّر البوح بما يريد سماعه السجّان، وذلك بغية الخلاص من شدّة العذاب، وهذا ما حدث للشخصية/ عامر، لحظة قرّر أحدهم أن يعتدي عليه جنسيّاً، فنادى وهو في حالة رعب مستغيثاً: «أرجوك سيّدي، سأعترف بما تريد» (المصدر نفسه، ۱۲٤). ويصل إلى مرحلة القنوط فيردف قائلاً: «قل لي ماذا تريد، سأنفّذه لك، هاتِ أوراقاً ودوّن عليها كلّ جرائم الكون، من قابيل وهابيل وحتّى يوم القيامة، لأوقّع عليها، وأنا الممنون» (المصدر نفسه، ۲۰۱۸م: ۱٤۹). ولكنّ التوسّلات والمحاولات اليائسة في تجنّب جحيم التعذيب المرعب الذي لا يطاق، باءت بالفشل، نزعوا ثيابه وأجلسوه على (بطل سفن آب). لم يكتف الجلّاد بإيلاج الزجاجة في شرجه، فراح يخاطبه قائلاً: «سأجرّب عليك تجارب تعذيب لا تعرفها حتّى جمهورية ألمانيا الديمقراطية التي علّمتني، قبل أن أدعك تلفظ آخر نفس. . سأطعمك لكلاب أجوّعها أسبوعاً» (المصدر نفسه، ۱٤۹).

لا تنتهي المأساة هنا بل ألقوه في الزنزانة وأقفلوا وراءه الباب وبقي يتألّم بحرقه تمنّى لو ينام، وهناك رواده طيف نهلة، حبيبته تمّر بخاطره كلوحة بيضاء، وشرع كأنّه يحلم، يحلم بفرشاة لا يستطيع رفعها بيده، تراءت له نهلة هناك؛ «لكن ما كان بمقدوره تحريك أيّاً من أعضاء جسمه، حتّى لسانه كان مشلولاً في فمه ويابساً. . كان مترعاً بالصراخ ولا يستطيع أن يصرخ، راغباً بالبكاء وتخذله الدموع» (المصدر نفسه، ۱۲۵). هكذا كان وضعه الجسماني والروحي في ذلك المكان المقرف؛ كلمات المقطع تعلن مدوّية حجم المعاناة التي شهدهتها الشخصيّة في مكان معاد كمديرية الأمن. ويا ليتها لو انتهت إلى هذا الحدّ الهمجي؛ لم يكتفوا بهذا الحدّ، حتّى حقنوه بمصل الجنون، ليفقد العقل والذاكرة، وبعد سنة وثلاثة أشهُر، يوم تيقّنوا بأنّه أصبح مجنوناً، أرسلوه إلى مكان معاد آخر/مستشفى المجانين ليقضي شهرين، وأطلقوا سراحه فيما بعد، وهو فاقد ثلاثة أرباع من عقله.

۳-۱-۲. الجامعة/الكلية

وهي عبارة عن مكان مفتوح وتعدّ رمزاً للعلم والثقافة والانفتاح نحو العالم الخارجي، يكمل الطالب فيها الدراسات العليا، بعد مسيرة من العطاء الدراسي، كما تعبّر عن حضارة وتقدّم الأمم من خلال الأبحاث التي يقوم بها الباحثون. ولكن لم تتهيّأ هكذا ظروف لعامر وزملائه؛ نهلة، وأريج، . . ، لم يحظ عامر بهكذا فرصة في كلية الفنون/السنة الأخيرة، حيث ألقت القوّات الأمنية القبض عليه مقابل باب الكلية، وأصبح المكان لأصدقائه مملّاً، وخاصّة لنهلة فكان يخيفها ويقلقها أيضاً؛ «إنّه منتصف أيلول، وبعد أسبوعين سيبدأ دوام الجامعات. وكانت كلّما فكّرت بالكلية والدوام انقبضت أحشاؤها» (المصدر نفسه، ۱٤۰). وبدا لها أمر التخرّج شيئاً ليس له قيمة؛ «وما فائدة التخرّج في الكلية إذا كان مطموراً في زنزانة، أو مدفوناً في قبر» (المصدر نفسه، ۱٤۰). وكانت تقصد بالمطمور، المقبور عامراً. فقد سيطر عليها اليأس بعد غيابه وتملّكتها اللامبالاة.

www.SID.ir

Archive of SID

٣-١-٣. المقهى

تظهر المقهى، في الرواية، في خلفية الصورة (background)، وهي تقع في مدينة (ب)، وكثيراً ما كان يرتادها حكمت/حكّو حتّى صارت له صداقات مع صاحبها (سلوم)، ومتسوّلة اسمها رندة كانت تجلس في ظلّ المقهى للكدية، وكان حكّو يحلم بها أحياناً: «ارتسمت صورة رندة في أفق ما، رجراج، من ذهنه. . حدّد قعدتها في ظلّ المقهى، مخفقاً في جمع ملامح وجهها، وكذا بسمتها، على عكس نبرة صوتها الحلوة: "زينة، أنتَ شلونك"، وكأنّه يسمعها الآن بوضوح غريب. . ولم يكن مرتاحاً للخبر الذي سمعه، قبل أيّام، من سلّوم. . وهو يقهقه بانتشاءٍ لئيم، بأنّها خانت العشرة وتزوّجت من قريب لها، مغادرة البلدة (ب) إلى قرية في أطراف مركز المحافظة» (رحيم، ٢٠١٨م: ١٧٧). يتحدّث حكّو مع رفيقه المخبول عبودي عن رندة فيقول: «أنا عقوبة أبي. . أنتَ عقوبة أبيك. . رندة عقوبة من؟. عمياء تقتعد ظلّ مقهى سلّوم وتستجدي ويُسمعونها كلمات أولئك الأنذال. . فرحت لأنّها تزوّجت. . حزنت لأنّها لن تكون ثانيةً قرب مقهى سلّوم لأعطيها ربع دينار فتقول لي: "اشلونك حكّو"» (المصدر نفسه، ١٩٩)، تعبير عن شفقة ممزوجة بحبّ وربّما قد كان أحبّها حقيقة.

يقدم لنا الروائي المقهى من وجهة نظر عامر فقد ألف المكان وصاحبه نقرأ: «استلم من سلّوم صاحب المقهى ما أمّنه عنده قبل نصف ساعة؛ كيس جنفاص يحوي قناني عرق وخبزاً وفاكهة وأشياء أخر. . » (المصدر نفسه، ١٦٨). ونفهم من هذا المقطع أنّ حكّو كان يحسّ بأنّ المكان آمن، وقد ألفه، لذا كان يؤمّن بضائعه البسيطة عند سلوم. «حين توجّه إلى مقهى سلوم علا صوت المؤذن يدعو لصلاة العصر. . استُقبل بهياج في المقهى. . سألوه عن البلدة (س)» (المصدر نفسه، ١٨٦). ولكن "لا تسلم الجرّة كلّ مرّة" فقد التقى بأربعة لصوص كان قد ضربوه ضرباً مبرّحاً غير رحيم في بداية أيام الحرب حتّى كسروا له سنّاً واليوم يراهم بألبسة فاخرة وعلى رؤوسهم أعقلة، ويتحدّثون بالتجارة في المقهى فعرفهم؛ «هذا الرجل المرتبك، الجالس بين اثنين يضعان عقالاً على رأسيهما، هو واحد من أولئك الأربعة الأوغاد» (المصدر نفسه، ٢٠٦).

وهنا يدرك عامر أنّ الثروة التي جمعها اللصوص إنّما كانت من عرق جبينهم في سبيل السرقة! وأكل الحرام. إذن قد بدأت رحلة جديدة من عمر المقهى، وبدأت معها بالظهور شرائح اجتماعية جديدة بالظهور ومنها فئة اللصوص متمثلةً في هؤلاء التجّار وربّما قصد الروائي من إحضارهم في المكان هو التلميح إلى أنْ ليس كلّ من يمتهن التجارة قد ورث الثروة من عرق جبينه وطريقها الشرعية، فقد يتخلّل التجّار لصوص اندمجوا في شرائح المجتمع.

ومن هنا يبدأ المكان ببث القلق في الشخصيّة «تنبّه أحد المعقّلين لحركة المجنون، ولاضطراب صاحبه. . صاح به: "قم، أخرج". . قام حكمت شاعراً بالوهن والدوار، وقال: "أنت الوسخ يا حرامي". . أمسك سلّوم بذراع حكمت وسحبه ليخرجه من مقهاه. . عند باب المقهى قال حكمت: "هذا حرامي. . سرق دكّان أحمد البزّاز، وكسر سنّي". . "إسمع حكمت. . كلامك سيتسبّب بمشكلة كبيرة. . رح"» (المصدر نفسه، ٢٠٧). وهكذا يفقد المكان هدوءه ويستسلم للعنف، وحتّى سلّوم يقوم بطرد حكمت خشية قطع رزقه، لأنّ المقهى من جهة ثانية هي مصدر للعيش بالنسبة له.

www.SID.ir

Archive of SID

٣-٢. الأماكن المغلقة الخاصّة

هي التي تتميّز بالمحدودية والضيق، وهي أماكن للإقامة، وتعدّ مُلكاً لصاحبها سواءً أ كانت هذه الملكية دائمة أم مؤقّتة. ويكون المكث فيها لأصحابها بشكل رئيس، ولا يحقّ للغير اقتحامها، ولها حرمة في الدين والقانون؛ وتتمظهر في الغرفة والزنزانة والمحل بالنسبة لصاحبه والشقق والبيوت والقصور. . . وغيرها.

٣-٢-١. البيت/الغرفة؛

من المفترض أن يكون البيت مكاناً للألفة، حسب رأي باشلار، إلّا أنّ بيوت المدينة في زمان عامر أفرادها راحوا يتجسّسون ويتنصّتون على بعضهم البعض، حتّى الزوجة تتنصّت وتتجسّس على زوجها في عشّهما والفراش. هذه حالة البيوت في بغداد أمّا البيوت في مدينة (س) الحدودية فكانت خالية أيّام القصف، وحكمت «دخل عشرة بيوت ولم يجد ما يمكن أن يؤكل. . الدور فارغة إلّا من أسمال وأغراض لا نفع فيها. . جاء معظمهم بعد رحيلهم بأيّام وأخذوا كلّ ما يخصّهم، كما لو أنّهم ليسوا عائدين مرّة أخرى أبداً» (رحيم، ٢٠١٨م: ١٩٢).

وهكذا ترصد الرواية الأثر الذي تركته الحرب على الأرض/المكان، مثلما توضح تفشّي حالة الفقر والجوع؛ «لا مطابخ عامرة في البلدة لتحتال القطط على ربّات البيوت وتسرق منهّن قطع اللّحم المعدّة للطبخ» (المصدر نفسه، ٥٧)، عبارة تحكي لسان حال بلدة نزح سكانها فخلت من الحياة بيوتها بسبب الحرب، وتشير إلى جوع الحيوانات التي لم تعد تجد شيئاً لتأكله، عبارة بإمكانها أن تختصر حجم المعاناة التي بلغها الحيوان قبل الإنسان. مقطع نستشف منه رائحة تهكّم ونبرة سخرية، ونرى فيه مشهداً تصويرياً لأسفّ حالات الإنسانيّة، حالات وأوضاع تجعل الإنسان/الشخصيّة والحيوان في متاهة الوجود وتضغطه وسط كمّاشة الفقر الاجتماعي الناجم عن الحرب.

وأمّا عن الغرف فكان لعامر غرفة في البلدة (س) أعطاها له الحاج مرتضى وأسكنه فيها وأعطاه بعض ما يحتاجه، «غرفة حكمت كوخ عتيق يقبع متفرداً، قريباً من دار الحاج مرتضى ذات الطابقين، على طرف دالية صغيرة ملحقة بالدار» (المصدر نفسه، ٢١). هي عبارة عن مكان يأوي إليه ليلاً لينام فيه؛ «دخل حكمت غرفته. . دفع بابها الخشبي العتيق، فعلا صرير اعتادته أذناه. . مشى نحو الزاوية حيث يضع الفانوس. . على الحائط صور مقتطعة من مجلّات وصحف، مثبتة بالصمغ بلا انتظام. كلّها للوحات تشكيلية لفنانين عالميين ومحليين. . . في الزاوية الأخرى صندوق ملابس كبير من المعدن، لا قفل له، مركون على كوميدينو خشبي صغير. . في الجهة المقابلة فراشه على سرير حديدي صدئ؛ دوشك من الإسفنج وبطانية قديمة (علامة فتّاح باشا)، ومخدّة لم يغسل وجهها الكالح منذ شهور. . » (المصدر نفسه، ٢٣-٢٤).

وهنا الغرفة تدل على المعاناة التي مرّ بها حكمت ولجوئه إلى الغرف البالية. أمّا الراوي فصوّر هذه الغرفة من زوايا عديدة، فقد اشتمل الوصف على معظم مكوناتها، ثم إنّ الراوي لم يقف عند هذا الحدّ في وصف الغرفة، بل استمر فوصف الصندوق والكوميدينو والسرير والدوشك والبطانية والمخدّة بصورة إيهامية تجعل القارئ يتوهّم أنّه يقع في لحظة السرد داخل تلك الغرفة، وفي هذا النوع من الوصف يغيب صوت الشخصيّة ويستمع القارئ إلى الراوي مباشرة.

وذات ليلة كان المطر يهطل بغزارة والقصف مستمراً ولكن حكمت «لم يتحرّك على الرغم من الغبار الذي هبط عليه بكتلة كثيفة من السقف، وانفتاح مصراعي النافذة، الذي جعل الغرفة في مهبّ تيّار هواء بارد محمّل بقطرات المطر. . . بوغت أخيراً بنور النهار الكابي المتسلل من النافذة الزجاجية التي لا ستائر تغطّيها نهض وخرج، وكان المطر ما يزال

www.SID.ir

Archive of SID

ينهمر» (المصدر نفسه، ١٧٦و١٧٨). هنا نستشف الوصف المستمرّ من قبل الراوي في استقصاء جزيئات المكان ومحتوياته بشكل تفصيلي خاصّة عندما يعمد إلى وصف الغرفة ليوحي وصفه بالقدم والرثاثة للمكان، وأبرز ما فيها سقفها العتيق القديم الذي يتناثر منه التراب، ونافذة الغرفة الزجاجية ذات المصراعين العارية من الستائر، وضع كفيل بإيحاء حجم المعاناة التي كان يحملها حكمت/ الشخصيّة.

وأحياناً تصبح الغرف ملاذات للشخصيات، والسبب انغلاق المكان بالكامل وقدرة الشخصيّة على الانفراد فيه واللجوء إلى الوحده؛ وهذا ما حصل بالفعل لحكمت يوم جاءت أخته، (علياء) لتراه؛ «بعد ساعة قام وخرج من غير أن يودّعها، أو ينظر إلى وجهها. . اتّجه نحو غرفته ليلوذ بها، قافلاً إيّاها بالترباس من الداخل، ولم يخرج إلّا في اليوم التالي» (المصدر نفسه، ٢٠١٨م: ٢٣). يتمخّض عن واقع هذا المقطع أنّ المكان بإمكانه تغيير نظرة الإنسان إلى واقعه باعتباره أساساً فعّالاً في تغيير سيكولوجية التفكير لدى الفرد، وأنّ انفصال الإنسان عن مكانه الأوّل يؤدّي حتماً إلى انسلاخه من ثقافته وتغيّر طبائعه بفعل ما يحيط به، وبالرغم من ذلك فهو على وعي بالخراب الذي استولى على نفسيّته جرّاء ما حلّ به، ورحيله عن مكانه الأوّل. هنا تجد الشخصيّة المكان الجديد آمناً فتلوذ به؛ فعلى الرغم من الرثاثة والبلى للغرفة تألف الشخصيّة المكان؛ «رفض حكمت السكن في بيت آخر. . كانت البلدة، مذ اشتعلت الحرب، ملكه، غير أنّه لم يتخلّ عن غرفته التي آوته بعدما وصل إلى هنا قبل أكثر من سنتين. . » (المصدر نفسه، ١٧١). تصبح الغرفة ملاذه ومأمنه من المخاطر ومن الناس مهابة الاختلاط بهم لما رأى من غدرهم به ووشايتهم له، أو بغية الانعكاف على الذات.

٣-٢-٢. القاعة

اختار حكمت قاعة طويلة، ليسكن الحمير فيها حتّى يحميها من القصف العشوائي، لعلّ القاعة كانت مكاناً لاجتماعات أو دار ضيافة؛ مبنى واطئ، ضيّق، بعرض خمسة أمتار وطول يقرب من الثلاثين متراً. لعلّ حكمت كان يعرف أنّ الأعيان ووجوه البلدة والمسؤولون والضيوف من ذوي المقام الرفيع كانوا يجلسون هنا في صفّين متقابلين على الأرائك الخشبية متّكئين، يتجاذبون أطراف الحديث ويخوضون في ماضيهم المجيد. يحتسون الشاي والقهوة المرّة والمرطّبات، ويتناولون أطعمة دسمة ويحمدون الخالق على نعمته. أمّا الآن فيمكن اتخاذ هذا المكان اسطبلاً للحمير التي تخلّى عنها أصحابها. فبين الأرائك توجد مساحة كافية لحركتها (المصدر نفسه، ٩٥). هذه المقاطع تحمل في طيّاتها الوصفية عبق السخرية من ذوي النفوذ المتمكّنين الذين صار مكانهم مأوى للحمير، واللطيف في الكلام التلميح لمن كانوا يذكرون ماضيهم المجيد وربّما عنى بذلك السلطة السابقة التي كانت في زمانها تفتخر بتأريخ أمّتها المجيد وقائدها الضرورة، الذي كانت تسمّيه خليفة المنصور في بغداد أو وريث حمورابي على أرض الرافدين. والمهمّ حصل هذا الاستبدال بعد تغيّر المكان وتغيّر ساكنيه من أفضل الكائنات/البشر إلى ذوات أنكر الأصوات/الحمير، وهذا ما يمكن حصوله للشخوص عند تغيير المكان.

www.SID.ir

Archive of SID

٤. تجليات الأماكن المفتوحة في الرواية

٤-١. الأماكن المفتوحة العامّة

هي أماكن يرتادها عامّة الناس؛ وتتجلّى هذه الأماكن في الشوارع والحدائق العامّة، والأحياء والمدن والقرى والمحطّات والمطارات وغيرها من الفضاءات المكانية التي تتّسم بالشساعة والاتّساع.

٤-١-١. الطبيعة/الغابة؛

انتقل عامر من مكان معروف هو المدينة/بغداد إلى مكان مجهول/س/ك، مكان يشير له بحرف فقط، أو بالأحرى غيّر مكانه إلى الطبيعة، وهذه ظاهرة نادراً ما نجد مثلها في الأدب الواقعي، اختار البطل العودة إلى الطبيعة/الأمّ ليعيش في كنف عناصرها من ظلام وبرد وجوع، وكلّها رموز لها دلالتها. حيث كان عامر غارقاً في ظلمات مطبّقة فرضها عليه النظام. فانتقل من عتمات الزنزانة الباردة وآلة التعذيب إلى عتمات الجنون وعذاب الواقع القاسي مثل الجوع والحرمان، وأصبح هدفاً لرصاصة طائشة أو قذيفة عشوائية .

إنّ الأطروحة الأساسية لشخصيات الرواية هي انفصال العقل عن نظام المعرفة الّذي تنتجه السلطة لا الذي ينجم عن تجربة التاريخ في الطبيعة. لقد انسحب عامر من ساحة المعركة إلى الغابة، كما فعل جبران بالهجرة إلى أمريكا، إنّها حالة نموذجية متكرّرة تربط الجنون الاجتماعي والسياسي بالانفصال عن المكان، فهو نزوح اضطراري وقسري، وتتبعه فلسفة الترحال واكتشاف موضع الذات في العالم.

٤-١-٢. القرية/البلدة؛

إذا كانت الرومانسية اتجهت إلى الريف/القرية من خلال دعوتها إلى العودة للطبيعة، فإنّ الواقعية اتّجهت إليها، لأنّ ظلم الإقطاع تجسّد فيها، والقرية تنتج والمدينة تأكل، ولا تأثير لها في الشأن السياسي؛ لذلك لم تجد القرية من يهتمّ بها من السياسيين أو غيرهم، بل عانت من ظلمهم واضطهادهم لها (عبدالله، ١٩٨٩م:٦١-٦٢).

وتبرز علاقة المدينة (المركز) بالقرية (الهامش) من خلال علاقة البطل بالمكانين، ففي رواية "ضمير الغائب" يدرك المتتبع لسيرة البطل عامر العلاقة الخلافية بين القرية والمدينة، وذلك من خلال عرض الروائي بأسلوب شيق كلّ ما جرى على عامر في بغداد وهروبه إلى المدينة (س) وعرض حالتها قبل الحرب وما بعدها وهو يسلّط الضوء على شخصيّات وأناس خصّ من بينهم جمهرة المهمّشين في المجتمع من أمثال عامر.

عامر بدّل اسمه إلى (حكمت) وأهالي البلدة راحوا يطلقون عليه اسم (حكّو)، فبعد إطلاق سراحه من مستشفى المجانين، هرب عامر إلى مكان آخر/البلدة الحدودية (س)؛ ليمارس طقوسه الجنونيّة المتمرّدة على الواقع، ليجدها فسحة لإزاحة همومه وهواجسه العاصفة من التفكير المضني بالأهوال، فإنّ «معايشة مكان جميل ونقل تجربته يثير في الذّهن مباشرة هناءة ذلك المكان، بينما سلسلة الإحباطات الّتي يعانيها المرء في مكان ما تجعل من هذا الأخير مكاناً عدوانيّاً» (كحلوش، ٢٠٠٨م: ٢٧)؛ لكنّه لقي حتفه هناك.

اشتعلت نار الحرب، فصارت الحياة الاجتماعية محرقة لجذوتها المستعرة، فوقعت البلدة هي الأخرى هدفاً لقصف الصواريخ. الصواريخ كانت تتساقط على البيوت، ممّا حدى بأهالي البلدة إلى الرحيل والهجرة الجماعية، بترك بيوتهم ومحلّاتهم، إلّا أنّ (حكّو)، فضّل البقاء في المكان، وكان يلحّ بإصرار عنيد؛ «البلدة في عجلة من أمرها، ترحل بأشيائها وناسها. بأحلامها وأوهامها. بحزنها وحسرتها. بقلقها ورعبها. بما تستطيع أن تحمل وتصطحب في

www.SID.ir

Archive of SID

مشهدِ الحرب الكبير. . بما يسمح به الوقت. بما تستدعيه النباهة المثلومة في خضّمِ دويّ القنابل التي تقترب حيناً، وحيناً تبتعد. . لن يبقى سوى القمامة، وجثّة البلدة الباردة يمثّل بها مخلبُ الحرب» (رحيم، ٢٠١٨م: ٥).

ارتحل أهل المدينة هرباً من نيران الحرب، فأصبحت صيداً سهلاً للصوص وسرّاق ينهبون المحلّات والدكاكين، والبيوت المتروكة، لا يطاردهم سوى حكّو وثلّة (المجانين) من أمثاله ... ويلاحظ في النصّ أعلاه كيف أضفى الروائي على المكان صفات البشر ليمنحه إحساساً بالأحداث التي يشهدها فالمكان لم يكن حيّزاً بقدر ما يحمل من الذكريات والألفة التي أصبحت ضائعة وباردة بسبب الحروب وبسبب فراق الأحبة.

دخلت نهلة يوماً المدينة/س بصحبة فريق عمل صحفي فشاهدت البلدة: «لاحت أولى بنايات البلدة الواطئة تتموّج على جانبي مسيل الإسفلت اللامع. . رأتها نهلة من خلال كوّة السائق في الزجاج الأمامي الموحل للسيارة. . سرت في بدنها رعدة باردة. . فيضٌ من وجلٍ صعد في صدرها، وجعل محيط جمجمتها يتنمّل. . كانت تنظر بعينين ذاهلتين، وأحسّت بالجفاف في حلقها. . سألها حسن المصوّر: (ها، والآن كيف هي معنوياتكِ؟). . هزّت رأسها ولم تنبس. . مناظر الخرائب التي مرّوا بها، والنخلات ذوات الرؤوس المحزوزة تركتهم صامتين. . كانوا ينظرون من كوّة الزجاج وقد استبدّ بهم غيظ مكتوم وانقباض وتشوّش في الرأس كما لو أنّهم على وشك الهبوط والاستقرار نهائياً على كوكب موحش في السماوات العُلى» (المصدر نفسه، ٢٥١).

يتّضح لنا من هذا الوصف أنّ مشاعر الشخصيّة هي مشاعر عدائية تجاه المكان، والراوي يصف لنا بهذا المقطع حال مدينة يطالها الدمار. إنّ حجم الخراب ووضع المدينة يلجم الشخصيّات ويجبرها على السكوت ويجعل العينيين ذاهلتين ويصيب الحلق بالجفاف؛ إذن فالمكان ووضعه قادر على تغيير الوضع الجسمي والنفسي للشخصية وتغيير تصرّفاتها، وما التغيير هذا إلّا نابعاً من تغيير هيئة المكان وشكله، مكان يهجره أهلـه ولا يتمسك به ويحـافظ عليه سوى ثلة المجانين. حيث كانت مهجورة، إلّا أنّها عامرة بـوجود عامر، وأصدقائه /زمر الكلاب، والحمير، والقطط.

٤-١-٣. الشارع

الشوارع أماكن مفتوحة تستقبل كلّ فئات المجتمع وتمنحهم كامل الحرية في التنقّل وسعة الاطلاع والتبدّل، وهي لا تقوم على تحديدات ولا حدود ثابتة ممّا يصعب على الكاتب عملية الإمساك بها (النصير، ٢٠١٠م:١١٠). وقد تطرّق الروائي إلى حضور الشخصيّات في الشوارع في حالات، أكثر ما تكون اعتيادية، وقد سمّاها بأسماء حقيقية لشوارع عراقية على أرض الواقع. فمن بغداد مثلاً، كان شارع الرشيد، وشارع السعدون وغيرهما. أمّا عامر فكان يدخل الشارع بصحبة نهلة قبل أن يعتقل، وكثيراً ما كانا يتمشّيان معاً وهما سعيدان جدّاً. ومشت نهلة وحيدة كئيبة بعد ما اعتقل عامر، ومشى عامر/حكمت وحيداً في شوارع البلدة (س)، فشتّان ما بين المشيتين. ولم تكن الشوارع في كثير من الأحيان محطّ أنظار بالنسبة للشخصيّات ولكنّ ما يتواجد في الشارع هو الذي كان له التأثير المباشر على الشخصيّة من إثارة انتباه أو بثّ سرور أو زرع بذور للكآبة، فالشخصيّات تتفاعل مع المكان لما يحمله من بواعث على تلك الأحاسيس. فالشارع ظرف مكاني لأشياء أخرى يحملها، من بنايات ولافتات وسيارات ومارّة ونصب و. . . إلخ.

وكمثال نذكر نصب الحريّة في شارع السعدون في بغداد، هو من إبداع الفنّان جواد سليم. شكّل النصب مركزاً لانتباه نهلة وذلك بعد ما رجعت من زيارة حكّو في البلدة (س)؛ «ترفع عينيها بين الحين والآخر إلى نصب الحريّة، تحاول فكّ رموزها، مركّزة بصرها على القضبان التي تتقوّض بيد عسكري صارم الملامح» (رحيم، ٢٠١٨م: ٢٦٧).

www.SID.ir

Archive of SID

وهذا التركيز إن دلّ على شيء إنّما يدلّ على تفاؤل نهلة وتطلّعها نحو الحريّة بخلاف حنان في *ترنيمة امرأة. . شفق البحر*، التي كانت تشكّ بتحقيق الحرية فالنصب نفسه كان يشير إليه سامر بتفاؤل وحنان بتشاؤم؛ لأنّها فقدت الأمل في الحياة/الحريّة

٤-٢. الأماكن المفتوحة الخاصّة

وتشمل كلّ مكان مفتوح في جوانبه، وخاصةً أعلاه، بحيث يكون خاصّاً لأناسٍ يمتلكونه دون غيرهم، فتدخل ضمن هذا الإطار، الحدائق المنزلية، والأراضي المفتوحة العائدة للملكية الخاصّة، والمزارع. . . إلخ.

٤-٢-١. حديقة البيت

تُشرف غرفة نهلة على حديقة البيت وكانت تذهب إليها لتستريح أو تطلّ عليها من نافذة غرفتها المشرفة عليها، لتستنشق شذاها العبق. ذات ليلة وقد خاب ظنّها من اللقاء بعامر، «نظرت إلى الحديقة المضاءة بمصابيح ملوّنة. . صفوف شجيرات الآس والورد منسّقة بصرامة وجمال، وثمة شجيرات صبّار ومتسلّقات الشبّوي والرازقي، وأشجار نارنج وبرتقال. . فتحت النافذة فهبَّ بوجهها هواءٌ دافئ متخم بروائح مختلطة ثقيلة. استنشقت منها بعمق. وما كان بمستطاعها أن تحدس كم من الوقت مضى وهي واقفة هكذا تتأمّل حديقة الليل وتشمّ شذاها، لكنّ الإحساس بالضيق لم يغادرها. وخُيّل إليها أنّ رجلاً ما يراقبها من نافذة بعيدة معتمة طالما هي واقفة في مسقط ضوء صارخ» (رحيم، ١١٠).

هنا نجد الروائي العليم يصف لنا الحديقة بما فيها من أشجار وورود وهواء منعش، ويتمكّن بواسطة الوصف المكاني من الإشارة إلى الأشياء المرئية وغير المرئية لأنّ التجسيد المكاني لا يقتصر على «تشكيل للأشكال والألوان فحسب ولكن على أنّها تشكيل بجميع مظاهر المحسوسات من أصوات وروائح وأشكال وظلال وملموسات» (قاسم، ١٩٨٥م: ١١١). ولكن بما أنّ الشخصيّة قلقة وحزينة فلا يؤثّر المكان بطلاوته عليها فتبقى أسيرة غرفتها؛ وحتّى وهي في غرفتها، لم تأمن شرّ من يراها من بعيد واقفة بالقرب من النافذة.

ولقد تطرّقت الرواية لهذا النوع من الأماكن، فأصبحت ذات دلالة معبّرة ضمن حالة أرادها الكاتب. ويمكن أن نلاحظ محدودية وجودها في نطاق الرواية لأنّ الروائي كان يتّخذ من الأماكن المغلقة دلالات أوسع ممّا في الأماكن المفتوحة، ولعلّ السبب في ذلك، هو حالة الانفلاق النفسي التي كانت تعاني منها الشخصيّة الرئيسة، فكان الاقتراب من الأماكن المغلقة يضمن وجود دلالة معبرة لتلك الحالة التي تعاني منها الشخصيّة.

النتائج

ممّا سبق استطاعت القراءة لهذه الرواية أن تبلور الأفكار الآتية:

تظهر الرواية منذ البداية على أنّها تختلف عن روايات رحيم السابقة، فهي آخر ما كتب قبيل وفاته؛ فقد جاءت كحصيلة خبرة طويلة، ومن المؤكّد أنّها قد استوحت الواقع العراقي من جهة تمثيل انكساراته الاجتماعية والسياسية وتصوير مظاهر الجور فيه، كما أنّها شخّصت حلم الشخوص بالعدالة الاجتماعية.

نسترجع من خلال الرواية حقبة تاريخية من حياة الشعب العراقي، وقد جاءت الرواية لتسرد حياة شخصيّة مختلفة بخلفيّتها الاجتماعية، باعتبارها مثقّفة ترفض الوضع القارّ، وسياسات الدولة، وتحكي مسار حياتها ومصيرها، والدراما

www.SID.ir

Archive of SID

التي تصنعها باختيارها طوراً، ومرغمة طوراً آخر، مثيرة وتراجيدية، لكنّها تختلف عن الدراما التي عاشها أبطال روايات رحيم السابقة، غير أنّ بصمة الكاتب تبقى هي ذاتها في رواياته كلّها.

تمنح القراءة المتأنيّة لهذا النصّ فسحة كبيرة يقف من خلالها الدراس على ملامح الشخصيّة الرئيسية، ومدى أهميّتها في مسار المبنى السردي، إذ يمكنه أن يستشعر الحسّ الدرامي والتراجيديا في النصّ، ويستكشف مواطن الحسّ الكوميدي لشخصيّة قادتها ملابسات ما تعرّضت له في حياتها للتتحوّل أو تدّعي الجنون لتحظى بفسحة للعيش؛ فكان هناك جانب جدّي مأساوي في حياتها وجانب آخر هزلي وساخر، وهما جانبان يعملان معاً على إضاءة النصّ السردي.

ركّزت الدراسة في مسارها على شخصيّة المجنون وبحثت في حضوره أنواع الأمكنة مستقصية التأثير والتأثّر بين الشخصيّات والأمكنة؛ فتبيّن أنّ البطل التراجيدي، يحضر في الأمكنة المغلقة والمفتوحة فأكثر ما كان يلقاه من عذاب وحرمان في المغلق منها. وأمّا عن تواجده في المكان المفتوح فقد قضى معظم وقته مشرّداً ومرافقاً في نفس الوقت لمجانين من أمثاله، وقد ألف بعض الحيوانات أيضاً وعطف عليها.

كانت الأطروحة الأساسية لشخصيّة الرواية منذ البداية أن تقضي أكثر أيّامها في القرية الحدودية والغابة، الأمر الذي جعل من حضورها المكثّف هناك سبباً في جعل البلدة الحدودية تحتلّ فضاءً أوسع في المتن الروائي، وعليه صارت أحداثها هي الأكثر في النصّ، وأكبر حدث فيها هو موت الشخصيّة/حكمت في أحد أنهارها بعد تحمّل مصاعب العيش كمجنون أو أنّها كانت قد تقمّصت شخصيّة المجنون، وإن كان الأمر هكذا فالمصيبة أعظم؛ إذ إنّ معايشة وضع كهذا يتطلّب تضحية جسيمة لأمر جسيم، عمل شاقّ جدّاً لا يقوم به إلّا من يمتلك إمّا الشجاعة الكافية، وإمّا المبادئ العظمى التي تستحقّ تلك المجازفة. وهذا صعب في كلا الحالتين؛ لكنّ الكاتب نجح في تقمّص شخصيّة المجنون وتمثيل عذاباتها ومعاناتها في المتن الروائي.

وأخيراً يمكن القول إنّ الشخصيّة غيّرت من طبيعتها ولجأت للطبيعة الأمّ لتقضي معظم وقتها مشرّدة في بلدة حدودية لتعيش آخر أيّام عمرها مع ثلّة من المجانين وزمر من الحيوانات ربّما وجدتها أفضل من أبناء جنسها/الإنسان. حيث كانت الشخصيّة ضحية قرارات السلطة، لكنّها في النهاية أصبحت نتيجة هذا التشرّد ضحية قصف عشوائي ينهي حياتها فلم يفدها لا التحوّل في الشخصيّة ولا التغيّر في المكان، فرحلت عن فضاء ملؤه الجور والامتهان لكرامة الإنسان.

المصادر

-الكتب العربيّة

- باشلار، غاستون، (١٩٨٤م)، **جماليّات المكان**، ترجمة غالب هلسا، ط٢، بيروت: المؤسّسة الجامعيّة.
- بحراوي، حسن، (١٩٩٠م)، **بنية الشكل الروائي (الفضاء - الزمن - الشخصيّة)**، ط١، بيروت: المركز الثقافي العربي.
- بيضون، أحمد، (١٩٨٥م)، **مداخل ومخارج (مشاركات نقدية)**، ط١، بيروت: المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع.
- رحيم، سعد محمد، (٢٠١٨م)، **فسحة للجنون**، ط١، بغداد: دار سطور.

www.SID.ir

Archive of SID

– كحلوش، فتيحة، (۲۰۰۸م)، **بلاغة المكان قراءة في مكانيّة النّص الشّعري**، ط۲، بيروت: مؤسسة الانتشار العربي.

– موير، إدوين، (۱۹٦٥م)، **بناء الرواية**، لا طبعة، القاهرة: دار الجيل.

– قاسم، سيزا، (۱۹۸٥م)، **بناء الرواية**، لا طبعة، بيروت: دار التنوير.

– النصير، ياسين، (۲۰۱۰م)، **الرواية والمكان (دراسة المكان الروائي)**، ط۲، دمشق، دار نينوى.

– عبد الله، محمد حسن، (۱۹۸۹م)، **الريف في الرواية العربية**، لا طبعة، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

– الرسائل والأطاريح

– جودي، محمد، (۲۰۱۲م)، **شعريّة الشخصيّة والمكان الروائي في (عائد إلى حيفا) لغسّان كنفاني (من البنية إلى الدلالة)**، مذكرة الماجستير، كليّة الآداب، جامعة الجزائر۲.

– قارّة، فلّة. ليندة لكحل، (۲۰۱۱م)، **بناء الشخصيّة والمكان في رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي**، رسالة الماستر، الجزائر/ جامعة منتوري، كليّة الآداب.

– الدوريات

– شريف، عكّازي، (۲۰۱۳م)، «طبيعة التلازم بين الشخصيّة الروائيّة والحيّز المكاني، رواية التبر لإبراهيم الكوني أنموذجاً»، مجلة مقاليد، العدد٥، صص ۹–۱۹.

– الرحاوي، فارس عبدالله بدر، *«ثقافة المكان وأثرها في الشخصيّة الروائية رواية (ليلة الملاك) أنموذجًا»*، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، ۲۰۱۱م، المجلد۱۱، العدد۲، صص ۲٦۳– ۲۸٦.

– صائب خضير، سلافة، (۲۰۰٦م)، «*أثر المكان في تحديد ملامح شخصيّة البطل في رواية (الطريق) لنجيب محفوظ و(الطريق) لعبد الحليم ابراهيم (دراسة موازنة)*»، *مجلة كليّة اللغات*، جامعة بغداد، العدد ۱٥، صص ۱٤– ۲٦.

– غانم، عبد الله عبد الغني، (۲۰۰۳م)، «*علم اجتماع السجون نحو علم جديد للسجون والمؤسسات العقابية والإصلاحية*»، *المجلة العربية للدراسات الأمنية والتدريب*، الرياض، ۱٤۲٤ه، المجلد ۱۸، العدد ۳٥، صص ۱٥٥– ۲۲۰.

www.SID.ir

Archive of SID

فصلنامه لسان مبین (پژوهش ادبی عربی)
سال دهم، دوره جدید، شماره سی و پنجم، بهار ۱۳۹۸

دگرگونی در شخصیت ومکان در رمان «فسحة للجنون» اثر سعد محمد رحیم*

کریم امیری، دانشجوی دکتری زبان و ادبیات عربی دانشگاه خلیج‌فارس، بوشهر
محمدجواد پورعابد، استادیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه خلیج‌فارس، بوشهر
ناصر زارع، استادیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه خلیج‌فارس، بوشهر
سید حیدر فرع شیرازی، دانشیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه خلیج‌فارس، بوشهر

چکیده

رمان‌نویس عراقی، سعد محمد رحیم، رمان خود "فسحة للجنون" (فضایی برای دیوانگی)، را درقالب یك متن تراژیکومیدیایی به صحنه آورد تا به فرآیند تغییر وتحوّل در شخصیت اصلی داستان وهمچنین فضای مکانی بپردازد. لذا در این اثر به دو عنصر شخصیت و مکان جایگاهی برجسته بخشید و میان آن دو رابطه هم‌آوایی برقرار نمود تا رمانش بتواند گوشه‌ای از رنج‌های انسان و مکان ناشی از ره‌آورد حکومت را درزمان جنگ بازنمایی کند.

پژوهش حاضر با استفاده از روش توصیفی تحلیلی می‌کوشد بر شخصیت اصلی این رمان تمرکز نماید تا از ظرافت‌های هنری به‌کاررفته در گره زدن آن به برخی از انواع مکان براساس نظریه یوری لوتمان (Y. Lotman)، پرده بردارد. از آن‌جا که قهرمان به لحاظ بعد روانی از یك انسان سالم به یك دیوانه تغییر می کند، لذا متحوّل نام گرفت. مکان نیز متغیّر نامیده شد زیرا شرایط حاضر بر آن تأثیر گذاشته وچهره‌اش را تغییر داده است.

بررسی نشان می‌دهد که عامر، شخصیت اصلی وهمه جانبه رمان، پس از تحمّل شکنجه دیوانه شده یا خود را به دیوانگی می‌زند، لذا به منطقه‌ای ناآشنا گریخته، نام خود را به حکمت یا حکو تغییر داده تا از این رهگذر بتواند اعتراض خود نسبت به نابسامانی‌های وضع موجود به‌ویژه رفتار ناپسند حکومت را به‌طورغیر مستقیم بازگو نماید. پس در مکان‌های متغیّر به ویژه (باز- بسته) حاضر می‌شود، و به طور تکامل‌یافته با آن‌ها رابطه برقرار می‌کند، مکان‌ها نیز با تغییر شمایل شخصیت، خود نیز دگرگون می‌شوند.

کلمات کلیدی: سعد محمد رحیم، رمان، شخصیت، مکان، دگرگونی، فسحة للجنون.

---

*- تأریخ دریافت مقاله: ۱۳۹۸/۰۱/۲٤ تأریخ پذیرش نهایی:۱۳۹۸/۰٤/۱۸
- پست الکترونیکی (نویسنده مسئول): *m.pourabed@pgu.ac.ir*
- شناسه دیجیتال(DOI):10.30479/lm.2019.10412.2777

www.SID.ir